# رحلة محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي إلى الحجاز

**بقلم: د.الزبير مهداد**

**باحث من المملكة المغربية**

**ملخص:**

مُحَمَّد بن الحسن الحجوي الثعالبي (ت 1956)، الفقيه السياسي ورجل الدولة الإصلاحي، زار الحجاز لأجل أداء فريضة الحج سنة 1946، فمر في طريقه على تونس ثم مصر، ودون مذكراته ومشاهداته في كناش.

أهمية هذه الرحلة في أن صاحبها كان يعد من النخب العلمية العربية الإسلامية، فهو ذو حضور علمي وديني وسياسي في المنطقة، اشتهر بخطه الفكري واجتهاده الفقهي ومصنفاته الهامة، ورحلاته إلى أوروبا التي استمد منها كثيرا من التجربة والخبرة والنماذج، وألهمته الكثير من الأفكار، التي حاول ترجمتها إلى بمبادرات إدارية وتعليمية إصلاحية.

كما تستمد الرحلة أهميتها من الظرف التاريخي الذي تمت فيه، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، التي كان لها أثر كبير على دول العالم ومنه البلاد العربية الإسلامية، وقد عاين الحجوي كثافة الحجاج خلال تلك السنة، بخلاف السنوات السابقة في ظل الحرب.

يتحدث الحجوي في مذكرات رحلته عن مشاهداته في تونس ومصر والحجار، ولقائه بالملك عبد العزيز، وعن الأوضاع العلمية والاجتماعية في المنطقة، ولا يفوت الفرصة دون تقديم نصائح ومقترحات لتطوير البنية التحتية وتحقيق التنمية في هذه البلدان. ولم يفته أن يقترح مخططا لتوسيع الحرم المكي. فالمذكرات تكشف لها بوضوح عن رأيه في النظام والتعليم باعتبارهما شرطا التقدم، وتأسيسا عليهما يقدم هذه النصائح التي تحققت في مجملها خلال السنوات اللاحقة، لأن الظروف الملائمة المالية والسياسية والاجتماعية كانت مواتية.

**Summary:** Mohammed Ibn Al-hasan al hajaoui al-tha-a-libi (Died on 1956), the politician scholar and the reformist man of state. He travelled to Hejaz in order to perform the Islamic pilgrimage “Hadj” on 1946 and

crossed on his way Tunisia and Egypt. He put down his notes and observations on a paper book.

The importance of the journey is due to the fact that al-thaalibi was considered to belong to the intellectual elite of the Arab and Islamic world. He was influential on the academic, religious and political level in the region. He was Known with his academic attitude and hermeneutics through the Islamic jurisprudence "Fiqh". He was also clearly inspired by his travels to Europe which provided him with a lot of expertise and models which he attempted to apply as educational and administrative reform initiatives.

Moreover, the importance of this event is highlighted with the historical setting of the time; it took place after the second world war. This had affected many lands, the Arabic and Islamic countries included. Al hajaoui witnessed therefore the great number of pilgrims compared to previous years.

Al hajaoui recorded in the diary of his journey what he saw and witnessed and he described his observations in Tunisia, Egypt and Saudi Arabia. He wrote also about his meeting with King Abdu Al Aziz and about the scientific and social conditions in the region. In addition to this, he gave advise and suggestions in his book about who could the infrastructure developed and progress achieved in the region. He even came out with a scheme to expand the holy *al-haram* mosque in Mekka.

The diary of the journey shed light indeed on his convictions upon which he based his recommendations and instructions: structure and education are conditions of progress. His ideas took form in the later years as a result of favorable financial, political and social settings.

**الكلمات المفتاحية**: الرحلة، النخبة العلمية، مُحَّد الحجوي، التراث الإسلامي، المذكرات.

**مقدمة:**

إن تراثنا الإسلامي يزخر كثيرا بمصنفات عديدة صنفت في أدب الرحلة، فقد دأب المسلمون على زيارة الأماكن المقدسة منذ البعثة النبوية. وكان المغاربة لبعد المسافة بينهم وبين الحجاز، أشد شوقا لزيارة هذه البلاد لأداء فريضة الحج، والأخذ عن العلماء، وليشهدوا منافع لهم اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية.وخلف الرحالة العلماء كتبا هامة صنفوها حول

رحلاتهم مثل ابن بطوطة الذي جاب الأقطار، ووصف ما شاهده وصفا صحيحا وموثوقا به. وكذا ابن جبير، والتجاني، والعبدري، وأبي سالم العياشي، والناصري وغير هؤلاء كثر.

وواصل الخلف السير على نهج السلف في تدوين رحلاتهم، إلى عهود متأخرة، فكان من عادة الحجاج المغاربة المثقفين أن يدونوا مذكرات رحلاتهم الحجازية وتضمينها تقارير عن لقاءاتهم وإجازاتهم التي تبادلوها مع غيرهم، وسجلوا مشاهداتهم وما دار في رحلاتهم، ما أضفى على هذه المذكرات قيمة تاريخية وجعلها مصدرا هاما للكتابة التاريخية والاجتماعية والثقافية عن الحجاز، هذه الأرض التي عاشت عبر تاريخها أحداثا كبرى سياسية وعسكرية، وشهدت خلال القرن العشرين طفرة سياسية واقتصادية هامة ومميزة.

والحجوي أحد الذين زاروا الحجاز خلال القرن العشرين، ودون مذكراته، فمن حسن حظ الحجوي أن أتيحت له فرصة ثمينة للقيام بهذه الرحلة وأداء مناسك الحج، في خريف عمره عام 1365هـ موافق 1946م وقد تجاوز عمره السبعين عاما في ظروف مريحة وجيدة وبشروط قل أن يستمتع بها غيره.

ورحلة مُحَّد بن الحسن الحجوي الحديثة، وإن كانت مختلفة في وقتها وظروفها ووقائعها عن الرحلات القديمة، فإنها لا تقل أهمية عنها. رحلة الحجوي لم تستغرق من الزمن سوى أياما قليلة، لذلك سوف يوثقها في ورقات قليلة أيضا، لتسفر عن كتيب صغير على عكس الرحلات القديمة التي كانت تستغرق وقتا طويلا يعد بالأشهر وتدون وقائعها في عدة أسفار. إلا أنها – على الرغم من قِصَرِها – تكتسي أهمية خاصة، باعتبار المؤلف أحد العلماء الكبار والفقهاء المجتهدين، والموظف السامي المتميز بحدة الذكاء وقوة الملاحظة؛باعتبار الظرف التاريخي الذي تمت فيه، فقد حج المؤلف بعيد نهاية الحرب العالمية الأولى، وكانت المملكة العربية السعودية تخطو خطواتها نحو البناء والوحدة والتنمية.

**رحلة الحجوي:**

رحلة الحجوي التي قام بها سنة 1365هـ/1946م رفقة ولديه مُحَمَّد المهدي، وعبد الرحمن، ركوبا من مطار سلا (المغرب) مرورا بالمدينتين الجزائريتين وهران والجزائر العاصمة، ثم تونس، وليبيا، فمصر ونهاية إلى أرض الحجاز، حيث كان يحدد تنقلاته بالساعات، مسجلا ما رآه وسمعه، مبديا تعجبه ببعض البلدان وحفاوة استقبالهم له.

حققها الدكتور عبد المجيد خيالي عن نسخة خطية كتبها المؤلف نفسه تتألف من خمس عشرة ورقة، وصدرت عن مركز التراث الثقافي المغربي ودار ابن حزم سنة 2010.

هذه الرحلة كسائر الرحلات تتضمن الفوائد الاجتماعية والتاريخية، وتوثق للقاءات والزيارات والمشاهدات والحوارات رآها جديرة بالتوثيق، وانتقاده لغيرها، كانت عنايته فيها موجهة إلى ملاحظة أنظمة الدول وما حققته في مسيرة تنميتها وتقدمها، وأحوال مواطنيها ومؤسساتها السياسية والاقتصادية والعلمية.

تحدث الحجوي في مذكراته عن سفره من سلا وحلوله بوهران والجزائر واستقباله بها، ثم مواصلته الرحلة إلى تونس، ولقاءاته بها، ثم انتقاله إلى مصر بعد توقف قصير ببنغازي الليبية.

خص مصر بحديث وافر، فتحدث عن القاهرة وسكانها ومبانيها وشوارعها ونهضتها العمرانية والصناعية والثقافية، ممتدحا منجزات الأسرة الحاكمة، التي جعلت القاهرة تضاهي العواصم الأوروبية المتقدمة. كما أفرد للنهضة التعليمية فصولا من رحلته متحدثا عن المعاهد والكليات ودور الكتب، بلغة تنم عن الإعجاب والثناء والفخر.

ثم ما تبقى من الكتاب خصصه للحجاز، فوثق للحظة وصوله إلى جدة، واستقباله، وتوجهه إلى مكة وأدائه العمرة، وزيارته للملك عبدالعزيز، ثم مشاركته في غسل الكعبة، وإتمام مناسك الحج. مدونا إلى جانب ذلك ملاحظات حول كيفية تدبير الشأن العام بالسعودية، ومنجزات الملك وإصلاحاته، وظروف الحجاج، والحية الاجتماعية والعلمية، مسجلا مقترحات هامة حول توسعة الحرم المكي.

**البحث، أهميته، إشكالاته وحدوده:**

وقع الاختيار على رحلة الحجوي موضوعا للبحث لاعتبارين اثنين:

– الأول: أنها كسائر مؤلفات الحجوي، تميزت بمعلومات هامة، عكست معرفة المؤلف الدينية، وفكره النقدي وخبرته الإدارية والمالية، وقوة ملاحظته واتقاد ذكائه ونزعته الإصلاحية؛

– الثاني: وقعت الرحلة في فترة هامة من تاريخ المملكة العربية السعودية، عقب الحرب العالمية الثانية، حيث كانت الدولة الوليدة تخطو خطواتها نحو البناء والتشييد وترسيخ مكاسب التوحيد وتضميد جراح الحرب وتأثيراتها السلبية.

فهل سيظل موضوعا التعليم والنظام حاضرين في تأملاته؟ وهل ستكون آراؤه وانتقاداته موضوعية نزيهة؟ أم أن الاحتفاء الذي حظي به سيدفعه لمجاملة القادة؟ وما مدى تمسكه بآرائه الإصلاحية مع تقدمه في العمر؟

سنقتصر في هذا البحث على رصد آراء الحجوي في التعليم والنظام بالمملكة العربية السعودية في عهدها الجديد من خلال ما ورد في الرحلة، مستحضرين أمثلةأمثلة عما دونه عن الدول الأخرى لأجل اكتمال المقارنة واتضاح الصورة.

**خطة البحث ومنهجه:**

لإنجاز هذه الدراسة، أخذنا بالمنهج الذي يعتمده الباحثون في التراث وأدبيات العلوم الإنسانية. وهو المنهج الوصفي التقريري التحليلي. وعلى ضوء هذا المنهج استخرجنا الكتابات والشواهد التربوية من كتاب رحلة الحجوي، وصنفناها ثم حللناها.

ورأينا لاعتبارات موضوعية أن تتطرق الدراسة إلى تعريف بسيرة المؤلف، وإشارة إلى الرحلة كأداة للمقارنة، ثم إيراد آراء الحجوي وما دونه عن موضوعي التعليم والنظام في الحجاز، باعتبارهما يشكلان محور الفكر الإصلاحي للحجوي، ثم خاتمة.

**ميلاد الحجوي وحياته:**

ولد مُحَمَّد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي بفاس في السابع من رمضان عام 1291 الذي يوافق 18 أكتوبر 1874 في أسرة عريقة اشتهرت بالعلمتنحدر من أصول جزائرية. تلقى دروسه الأولى في طفولته على يد والده بالاستعانة بالجدة للأب التي احتفظ لها في ذاكرته بأجمل ذكرى. وفي عام 1307هـ/1890م دخل جامع القرويين لاستكمال تعليمه، فأخذ عن شيوخ كبار. وفي عام 1316هـ/1899م، وبعد تسع سنوات من الدراسة استطاع أن يرقى إلى رتبة العلماء المدرسين، وشرع في إلقاء الدروس في رحاب هذا الجامع العتيق، ولم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين، وفي هذه السنة أيضا ألف أول كتبه[1].

ثم دخل معترك الحياة العامة بمزاولة التجارة ابتداء من عام 1900/1317، ثم مجال الوظائف المخزنية الحكومية ابتداء من عام 1901/1318م حيث ألحقه السلطان المولى عبد العزيز بديوانه، رشحه لذلك نبوغه المبكر. وعين عام 1903/1320 أمينا على ديوانة وجدة، ثم أصبح عام 1904/1321 مفتشا عاما للجيش ونائبا عن وزارتي المالية والحربية. منتدبا بظهير ملكي بإدارة البعثة المغربية في وجدة المكلفة بتسوية مشاكل الحدود المغربية الجزائرية. إلا أن نزاهته وجديته وأمانته وملكته النقدية كانت من أسباب عدم تكيفه واندماجه في الأسرة المخزنية الحكومية. وتعبيرا عن استيائه قدم استقالته من مهامه عام 1907/1324 بعد أن أدى المهام الموكلة إليه خير أداء. وابتداء من عام 1330 هـ الموافق 1912 م سمي نائب الصدر الأعظم في العلوم والمعارف، وهو أول مغربي يتولى هذا المنصب. دام فيه حوالي خمسة وعشرين عاما. وفي شوال 1333 الموافق لـ12 غشت 1914 نصبه السلطان المولى يوسف مستشارا للحكومة الشريفة، اعترافا بنباهته وكفاءته السياسية والإدارية وولائه.ثمتولى بعد ذلك مناصب على جانب كبير من الحساسية ومنها تعيينه وزيرا للعدل في حكومة السلطان المغفور له مُحَمَّد بن يوسف عام 1944.

[1] أحمد العمراوي، "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"، **مجلة بصمات**: منشورات كلية الآداب ابن مسيك، الدار البيضاء، عدد5 (سنة 1990)، ص 269.

توفي رحمه الله عام 1956م ودفن بفاس، بعد حياة سياسية وعلمية وتجارية حافلة، وغنية بالأحداث الجسام، مخلفا عددا من الكتب الفقهية والأدبية والمذكرات والتقارير الهامة.

**الرحلة أداة للمقارنة:**

كان الحجوي من بين من انشغلوا بإشكالية تخلف الذات وتقدم الغرب، بحثا وتفكيرا وكتابة وحديثا.إلا أنه كان أكثر دقة من غيره في الحديث عن المشكل وتناول فروض الإصلاح[2]، نتيجة علمه الواسع ووعيه الذكي ونظره الثاقب، فتعدد رحلاته داخليا وخارجيا، وتحمله مسؤوليات إدارية قيادية ومالية وتجارية على جانب كبير من الأهمية، مكنه من الإطلاع عن كثب على المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تعيشها البلدان الإسلامية عامة والمغربية خاصة، ومقارنة أحوالها بأحوال الدول المتقدمة.

أتاحت له وظائفه السياسية ومهامه الإدارية التي تولاها، وكذا تجارته الخاصة، وعلاقاته الثقافية فرصا هامة للقيام برحلات إلى عدد من الدول الأجنبية عربية وأوروبية. وكان حريصا على تدوين هذه الرحلات، رغبة في تعميم الفائدة، وتعريف مواطنيه بأحوال دول أوروبا ونظمها المتقدمة، أملا منه في أن تفيد في تصحيح التصورات الخاطئة المنتشرة عن هذه الدول والتي تشكل أحكاما مسبقة تحول دون مد جسور التعاون والتفاهم والاقتداء والتثاقف أخذا وعطاء[3].

استلفت أنظار الحجوي خلال زيارته لأوروبا التنظيم الاجتماعي والإداري المحكم الذي تنعم به، ودرجة التقدم العلمي والتكنولوجي التي بلغتها، والذي تبدو معالمه واضحة في النهضة الصناعية التي تأسس عليها نظام اقتصادي قوي ساهم في خلق فرص العمل التي ازدهر بها الإنتاج وحققت الكفاية وراكمت الثروات.

---

[2] عبد الإله بلقزيز، "الإصلاح، التحديث والاجتهاد في التداول المغربي الحديث"، **مجلة بصمات**، عدد 5، ص21.

[3] نواف عبدالعزيز الجحمة، "الآخر الأوروبي في الرحلة السفارية"، **جريدة القبس**، الكويت، (27 أكتوبر 2007)، ص 21.

وليس غريباً أن يؤدي الاهتمام بالصناعة والعلم إلى ذلك المستوى من التدبير والتنظيم في باريز لا بل في عموم فرنسا وأوروبا. فطلب العلم والمعارف هنا يصل حد الهيام (الهيام بالعلم)، والتعليم هنا إجباري. والحياة والعلاقات تتأسس على قواعد تواضع الجميع على قبولها ومراعاتها، وروح المسؤولية والمواطنة والانضباط واحترام الحقوق والواجبات كلها قيم وأخلاق استلفتت نظر الحجوي وعبر عن إعجابه بحضورها في الحياة الاجتماعية لمواطني أوروبا.

هذه الأمور التي استلفتت نظر الحجوي خلال رحلاته إلى أوروبا، سيجعلها مؤشرات يقيس على ضوئها مدى تقدم البلدان، وستتحكم في نظرته إلى الدول المشرقية التي زارها، فالحجوي تكون لديه يقين بأن التقدم لا يمكن أن يحصل إلا بأمرين اثنين، وهما: النهضة العلمية والنظام، اللذان ينعكسان بشكل قوي وواضح على التقدم الصناعي والتكنولوجي للبلد، فلا يمكن أن تنهض صناعة إلا بالعلم، ولا يمكن أن تصمد وتحقق نتائجها إلا بالنظام. فقاعدتا التقدم لدى الحجوي هما العلم والتمسك بالنظام.

**التعليم والحياة العلمية في الحجاز:**

يعتبر الحجوي العلم أحد شَرْطَيْ الرقي والتقدم، وضامنا لاستقلال الدول المستعمرة، ويرى أن الأمية هي داء الإسلام الدفين وسبب تأخر الأمة. فينبغي المبادرة بمحاربتها بنشر التعليم وتطوير طرقه وأساليبه حتى يغدو تعليم القراءة والكتابة سهلا متيسرا للجميع، ذكورا وإناثا، صغارا وكبارا، من بدو وحضر[4].

فالعلم شرط التقدم، والجهل سبب التخلف، وهذا الهاجس ظل حاضرا معه طيلة الرحلة. ومروره عبر تونس، أتاح له فرصة للقاء علمائها وطلبتها، وتونس له بها ذكريات عزيزة، وأصدقاء كثر وجمعيات نشط فيها، التقاهم وسامرهم، ولإرواء نهمه الثقافي زار المعاهد

[4] الزبير مهداد، "الحجوي(شخصية العدد)، **المجلة العربية للتربية**، تونس، المجلد 22، العدد 2 (شوال 1423-ديسمبر 2002)، ص 193-212.

العلمية التعليمية الزيتونية الشهيرة: (وأقمنا بتونس لزيارة معاهدها العلمية، جامع الزيتونة وفروعه الأربعة التي بالعاصمة ولقينا جميع مشايخها وتلاميذها)[5].

وبعد ليبيا، حط الحجوي رحاله بمصر، قبل ولوج بلاد الحجاز، ولم يخف انبهاره بالقاهرة التي وصفها بباريز العروبة، إعجابا بمظاهر التحضر والتمدن والرقي التي تعرفها المدينة، وأسهب في عبارات المديح والإعجاب بجامعتها: معهد المعاهد ومعجزة المفاخر جامعة فؤاد التي أسست منذ نحو عشرين سنة فقط (...) وزد على ذلك ما احتفّ بهذه الجامعة من كليات للعلم والأدب وما هو منبت في شوارع العاصمة من كليات كثيرة منها ما هو منتسب للأزهر ككلية الشريعة (...) ومنها ما هو مضاف للجامعة وبلصقها ككلية الآداب وكلية الحقوق (...) وهم وإن بنوا على ما أسسه من قبلهم في الأزهر ومضافاتها وغيرها من المعاهد، لكن ما شيدوه وزادوه أنسى ما عمله من قبلهم بكثرته وإتقانه وهو لا يقل عما أسسته أوروبا في عواصمها، بل يفوق الكثير منه في هذه المدة القصيرة[6].

في الحجاز، وعلى الرغم من الانشغال بمراسيم الزيارة الرسمية، وبمناسك الحج، فإن الحجوي لم يخف اهتمامه بالحياة العلمية الحجازية.إذ بعد حضور عملية غسل الكعبة المشرفة والاستماع إلى خطبة الملك عبد العزيز بالمناسبة، والتي أبان فيها الملك عبد العزيز عن روح نضالية، وموقف مبدأي من القضية الفلسطينية في أحرج أوقاتها، ودعوة صريحة إلى دعم القضية الفلسطينية، وحض الحكام المسلمين على ذلك. وكان الملك عبد العزيز وقتها يكثف اتصالاته بقادة العالم لأجل شرح وعرض رأي الأمة العربية الإسلامية بخصوص القضية. حيث كان قد اجتمع عام 1945 بروزفلت في قناة السويس، وبعده اجتمعفي القيوم بمصر بتشرشل.

---

[5] محمد بن الحسن الحجوي، **رحلة حجازية**، تحقيق: عبد المجيد خيالي، (بيروت، دار ابن حزم 1430هـ)، ص 44.

[6] الحجوي: **الرحلة**، ص ص55-57.

وتكلم الملك في خطبته عن التعليم، قائلا: "أوصى الجميع بأن لا يعلّموا أولادهم الثقافة الأوربية والإفرنجية التي تنشر الإلحاد، بعدما أوصى بالتعليم والحض عليه، وصرّح بأن الأمة العربية ما دامت متوانية في التعليم سائرة على مهل، فإنها لا تبلغ الهدف"[7].

هذا الكلام مع دلالته على وعي الملك عبد العزيز بأهمية التعليم، فإنه معبر عن موقف من الثقافة الغربية التي أضحت تكتسح المنطقة، وتفرض نفسها بقوة، الأمر الذي استلفت نظر الحجوي فطفق يبحث في خلفيات الموقف.فأول ما سأل عنه بخصوص شخصية العاهل السعودي الملك عبد العزيز رحمه الله هو ثقافته فأكد له محاوره بأن ثقافة الملك عبد العزيز هي عربية لا يخالطها شيء من الثقافات الأخرى، وقد درس الفقه على المذهب الحنبلي والتوحيد على المذهب الوهابي، مع ما يتميز به من ذكاء متوقد وحافظة جيدة وخصال أخرى حميدة.

الموقف السلبي من الثقافة الأوروبية والإفرنجية يعني رفضاقاطعا لابتعاث الطلبة نحو أوروبا، على الرغم من الحاجة الملحة للدولة السعودية الناشئة إلى الأطر (الكوادر) المختصة في المجالات العلمية والتنظيمية المتطورة القادرة على مواكبة التقدم العلمي والتقني الذي يكتسح العالم. فالعلم الأوربي هو باب الرقي للدول المتخلفة، وتطويرالأنظمة الإدارية والمالية والعلوم والصناعات كان يقتضي آنذاك اقتباسها من العالم الأوروبي. فالحجوي رحمه الله كان مقتنعا بأنه يمكننا الاستفادة من احتكاكنا بالدول الحامية، فنقتبس منها علومها ومعارفها وتقنياتها، ما يفتح أمامنا الطريق نحو التقدم والرقي، إيمانا منه بأن العلم والتكنولوجيا إنتاج إنساني محايد.

فالدولة السعودية الناشئة كانت حينذاك تخطو أولى خطواتها نحو احتلال مكانتها المتميزة في الساحة الدولية بفضل ثرواتها المعدنية وإمكاناتها الاقتصادية، ورصد الحجوي بعينه الثاقبة ما كانت تواجهه من التحديات وحاجتها الملحة إلى القيادات الإدارية والمهارات

[7] **الرحلة**، ص 69، وص70.

التقنية المؤهلة القادرة على تلبية حاجات سوق العمل وقيادة عملية التنمية الوطنية وفق النظم والمعايير العالمية، وفي غياب تعليم عال سعودي حديث، لم يكن هناك بديل عن اللجوء إلى الابتعاث إلى الجامعات الكبرى في الخارج.

يضيف الحجوي قائلا: (سألت من هم مطلعين على أحواله (الملك عبدالعزيز) هل له بعثات يُرْسلها لأوربا لتعليم أعلى؟ فأجاب: بأنه لا يعلم له بعثة أوروبية لأنه يخشى أن يقع فيما وقعت فيه تركيا، مما نتج لها من جمعية الاتحاد والترقي في الإلحاد. نعم له بعثة في مصر يبلغ عددها مائتين وخمسين تلميذاً تتلقى علوماً عصرية وعربية من صف الثانوي، وله بعثة في الأزهر الشريف ما أدري هل هي داخلة في المائتين والخمسين أو زائدة عليها)[8]. هذه العبارة تنم عن خيبة الأمل التي يستشعرهاالحجوي، فالبعثة الأزهرية لن تضيف أية قيمة نوعية إلى الابتعاث السعودي، لأن إمكانات الأزهر العلمية حينذاك كانت قاصرة عن الوفاء بالحاجات النوعية المتجددة والمتطورة للنهضة السعودية، ومصر نفسها لم تكن مكتفيةً بالعلم الأزهري لتلبية حاجات سوق الشغل الحديث، بل كانت توجه البعثات تلو الأخرى إلى دول أوروبا المتقدمة لتتلقى التكوين العلمي الأكاديمي العصري الملائم لحاجات التنمية الوطنية.

لن يظل الوضع على ما هو عليه، إذ بعد سنوات قليلة، ستغير القيادة السعودية موقفها، وتوجه بعثاتها الطلابية نحو الجامعات الأوروبية والأمريكية لتلقي العلم والثقافة الأوروبية والإفرنجية، وتفتح الباب على مصراعيه لاستقطاب التجارب والخبرات في التنمية والتنظيم من كل بلاد العالم المتقدم.

كانت الرحلة الحجازية إحدى أهم فرص التواصل العلمي والثقافي بين العلماء وطلبة العلم من الغرب الإسلامي ونظرائهم المشارقة، ويؤكد الحجوي في رحلته أن هذه الميزة لم تتح لأمة من الأمم سوى الأمة الإسلامية بفضل موسم الحج الذي ينعقد كل سنة.فحرص الحجوي قدر الإمكان على التواصل مع أقرانه العلماء والمثقفين، كما ظل حريصا أيضا على

[8] **الرحلة**، ص 71 و72.

رصد مستوى التعليم والتطور الثقافي والإصلاح التربوي في البلاد التي زارها، فأبدى أسفه لما لاحظه من مظاهر الركود الثقافي الديني في الحجاز وبالخصوص في الحرمين الشريفين حيث افتقد الحلقات والدروس العلمية التي كان يقصدها الناس من سائر البلدان لتعميق ثقافتهم الدينية، يقول الحجوي: (الحالة العلمية في الحجاز والحرمين الشريفين مما يدخل الكدر على كل غيور على مواطن الوحيوالدين، وهما النقطتان اللتان ابتدأ منهما انتشار العلوم الإسلامية والآداب الدينية (...) فكل من الحرمين الشريفين خال من دروس العلم الديني والدنيوي؛ فما رأيت في مسجد مكة والمدينة دروساً علمية أو تهذيبية)[9].

**النظام في الحجاز:**

يعتبر الحجوي النظام هو الشرط الثاني للتقدم والرقي، وينسب له الفضل في كل نهضة تحققت في أوروبا. ويتجلى النظام في تقنين الأحكام وحسن ضبط وإدارة الشأن العام، وفي انضباط المواطنين واحترامهم للقانون[10].

وقد أشاد الحجوي في رحلته الأوروبية بالتزام المواطنين النظام في حياتهم اليومية كلها (والكل على نظام تام وسكينة ووقار وأدب عام: يحترمون القانون والأوامر الملوكية احتراما فائقا حد التصور. فباريس "فيها من البوليس اثنا عشر ألفا: مهما وقف واحد من البوليس وأشار بيده إلى ألف من الناس أو عدد من المركبات وقف الكل كأنما على رؤوسهم الطير فلا يتقدم واحد بقدم حتى يشير إليهم بالانصراف. ولولا هذا النظام وذلك الأدب، لهلكوا)[11]

[9] **الرحلة**، ص 96.

[10] الزبير مهداد، "النظام شرط التقدم"، **مجلة الرابطة**: مكة المكرمة، السنة 49، العدد 554 (محرم 1434-نوفمبر 2012)، ص ص78-80.

[11] نواف الجحمة،"الآخر الأوروبي من خلال الرحلة"، **جريدة القبس**: الكويت، (28 أكتوبر 2007)، ص 34.

فالدول تنتظم أمورها بالتشريعات التي تقوم عليها مؤسساتها ويلتزم بها سائر الأفراد التزاما تاما.

عبر الحجوي عن إعجابه الكبير بمصر التي زارها في طريقه إلى الحجاز، فالقاهرة مدينة حديثة، تخلف عن مدن المغرب القديمة التي تشكل كتلة متلاحمة من البناء يتكئ بعضها على بعض، بينما مصر على الرغم من قدمها أيضا، فهي راقية وأبنيتها شامخة في الجو، وطرقها منظمة متسعة، تسبح فيها السيارات الكثيرة، وتتخللها الميادين المتسعة والجنات الفيحاء، وحول النيل أقيمت القصور المدرسية والأميرية والإدارية، فأغلب المباني جميلة فتانة وفسح ما بين أبنيتها مع انتظام الطرق ما يجعلها مدينة جديدة.

فالقاهرة التي صيرتها العائلة الحاكمة باريز العروبة هي أبهج العواصم وأحفل المدن الراقية، وشعبها أهدأ الشعوب وأبعدها عن القساوة وفكرة الحرب والفتن، إنما هو شعب العلم ومكارم الأخلاق والمدنية، وأميل للاكتساب والرفه.

إلا أنه ولذكائه المتقد ودقة ملاحظته، يصرح بأن المشكل المروري بالقاهرة سيستفحل مع مرور الزمن، على الرغم من أنه كان يبدو في زمنه أبعد ما يكون عن ذلك. وينصح الحجوي لتفادي المعظلة المرورية إحداث ميترو الأنفاق، مثل ما هو حاصل في الدول المتقدمة التي تستعين به في النقل وتستغل أنفاقه كملجأ للحماية من القصف الجوي خلال المعارك. وهو ما ستلجأ إليه مصر بعد خمسين عاما من زيارة الحجوي لها[12].

من مصر سينتقل الحجوي إلى السعودية، وأول ما أشاد به الحجوي بخصوص السعودية هو استتباب الأمن، مذكرا بما كان يعانيه الحجاج في العهود السابقة، بسبب غياب الأمن وضعف الدولة المركزية، ما شجع قطاع الطرق ورجال العصابات على التعسف على الحجاج ونهبهم، وكتب الرحلات تعج بالحكايات الأليمة والصور المرعبة لظاهرة قطاع الطرق بمسالك

[12] **الرحلة**، ص 49 وما بعدها.

الحجاج في أرض الحجازبين جدة ومكة والمدينة وغيرها. (فأما الأمن، ففي جميع مملكته، بصرامته التي لا تقبل شفاعة ولا تعرف محسوبية، وبالجملة، أهم ما تراه في الحجاز انتشار الأمن بسبب ضبط الأحكام وصرامتها المهولة. فإن الحجاز كان في أيام الترك والحسينيين وَكْرَ السُّرّاقِ والنُّهّابِ وقُطّاعِ الطريق. وبوجود ابن سعود، أطال الله عمره، أباد هذا النوع من البشر الذي كان ضد الحجاج وضد البشرية؛ فأقام الحدود الشرعية بقطع يد كل سارق كيفما كان. وما قطع منها إلا نحو العشرة، فلم يبق منهم واحد. وقتل قطاع الطرق واللصوص حتى لم يبق منهم واحد، فأمنت البلاد وأقبلوا على التجارة والاكتساب)[13]. فمن رأي الحجوي أن انضباط المواطنين وخضوعهم للقانون واحترامهم له يدل على تحضرهم وعلى قوة الدولة ومؤسساتها نفاذ تشريعاتها وقوانينها، وينعكس ذلك بوضوح على السلم والاستقرار الاجتماعي.

كما سجل الحجوي إقرار السلطة السعودية الجديدة لخطة توحيد رؤية الأهلة على مستوى بلاد الحجاز قاطبة باعتماد رؤية الرياض عاصمة المملكة، ما يساهم في ترسيخ الوحدة الوطنية ويوحد التقويم ويحد من التضارب في مواعد أداء المناسك وتعددها (لما وصلنا إلى مكة المكرمة، نادى المنادي بأنه جاء التعريف من مدينة الرياض، بأن أول ذي الحجة يوم الجمعة،،، فكان وقوف عرفة يوم السبت)[14]

كما عبر عن إعجابه بالاعتناء الشديد بالنظافة. فمع أن الحجيج قد فاق المائتين وخمسين ألفاً، (ومع ذلك، ما كنا نرى في المسجد الحرام الذي يحمل باكتظاظ قسماً مهماً من هذا العدد صباحاً ومساءً وليلاً شيئاً ما من فضلات هذا العدد ولا بالطرق المتصلة به ولا بأبعد منه لا في ليل ولا في نهار كأن الجان ينقل فضلاتهم..)[15]. فالأمن والأمان والسلم الاجتماعي

[13] **الرحلة**، ص 78.

[14] **الرحلة**، ص 66.

[15] **الرحلة**، ص 78.

عصب الحياة المدنية من شروط الاستقرار السياسي، وغياب هذه الشروط يؤدي إلى الفتن والاضطراب الاجتماعي الذي ينعش الجهل والتخلف.

وفي الرحلة الحجازية ستبرز شخصية الحجوي الإدارية التي تتوارى خلف شخصيته الفقهية. فرجل الدولة المسؤول، يدون ملاحظات قمينة بالاعتبار حول طريقة تدبير الشأن العام السعودي خلال الفترة التي زار فيها البلاد، وكانت الدولة السعودية ناشئة في بداية عهدها،وكان القصور يعتري أداء الأجهزة الإدارية والمالية لهذه الدولة الفتية.

على المستوى الاجتماعي لاحظ الحجوي وجود فوارق اجتماعية صارخة واستفحال الفقر في البلاد وانتشار الغلاء (فهي من أغلى البلاد، وهي من أغنى البلاد أيضاً ومن أفقرها أيضا)[16] وهذا التناقص الاقتصادي الاجتماعي الصارخ يدفعالحجوي إلى التساؤل عما قد يخفيه وراءه من مظاهر الفساد التي يدعو الله أن يقي المسلمين عامة والحرمين خاصة شرها، لأن وجود الثروة مع الفقر مؤشر لغياب العدالة الاجتماعية ولسوء التدبير.

ويضيف الحجوي أن البلاد تتوفر على إمكانات اقتصادية هامة وموارد مالية متنوعة (البترول، الذهب، الرسوم الجمركية) ما يؤهلها لأن تكون أحسن حالا مما هي عليه، إلا أن واقع الحاليكشف عن خلل في الإدارة المالية للدولة من خلال مظاهر الفقر والغلاء وضعف البنيات التحتية (الشبكة الطرقية) واضطراب صرف أجور الموظفين، وهذا الخلل يرى الحجوي أنه ناشئ عن قلة الأطر الكفأة القادرة على تسيير وتدبير الشؤون المالية بإحكام ومهارة.

وقد غاب عن الحجوي على ذكائه المتقد، أن الدولة السعودية كانت حينئذ حديثة عهد بالتأسيس، ولم يكن قد مضى على بسط نفوذها على مكة المكرمة سوى عشر سنين، وهي فترة قصيرة في عمر الأمم، لا تسمح بإقرار كل النظم وتنفيذ كل الخطط والبرامج وحل المشاكل المتراكمة الموروثة.

[16] **الرحلة**، ص 75.

ومع ذلك لم يخف الحجوي إعجابه بالملك عبد العزيز الذي لقي لديه ترحيبا وإكراما خاصين، يقول عن الملك عبد العزيز: (ولما قابلنا، وقف على قدميه وتقدم بخطوات إلى مصافحتنا، فصافحناه كما يجب، فأجلسني على كرسي يمينه مثل الكرسي الذي هو جالس عليه، وأجلس النجلين عن يساره (...) وسألني عن ولَدَيَّ فعرفته بكل منهما اسماً وعلماً وعملاً، وأبلغته سلام سيدنا السلطان المؤيد بالله، ودعاءه الصالح له ولأنجاله، وقدمت له هدية منه فقبلها أحسن قبول، وأظهر فرحه بها وتقديره إياها، وسألني عن أحوال جلالته ومملكته الكريمة، وبالغ في السؤال والدعاء لجلالته، وسألني كيف كان سفري وراحتي (...) وسأل النجلين عن عملهما وحالتهما، وكل حالته وحركاته وكلامه دال على فضل الرجل ومنزلته واعتنائه بالعلم والعلماء، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه، واستدعانا للعشاء عنده ليلاً، والحضور معه في غسل الكعبة من غده)[17](رجل عالم فصيح اللسان، يتكلم ويخطب على البداهة، عاقل شجاع مقدام عزيز النفس عالي الهمة... وله ذكاء متوقد وحافظة جيدة وطوية إسلامية وشهامة عربية وحظ قوي في تسيير مملكته والظفر بأعدائه. ولكن إذا ظفِر، حَلِم وعفا حتى صار أعداؤه أحباباً له)[18].

ولا ينسى أن يعدد بعض منجزاته الهامة كطريق جدة مكة (طريق صناعية طولها نحو سبعين كيلومتر، مزفة تزفيتا حسنا متقنا، مما يَسَّرَ قطعَ المسافة في فترة محدودة من الزمن)[19]، ومطار جدة (عَلَوْنا الساحل الحجازي العربي، وصرنا نتمتع بمنظر أرض الحجاز العزيزة على كل مسلم (...) ثم حَلَلْنا مطار جدة)[20]، إلى جانب تثبيت الأمن في البلاد ومحاربة كل مظاهر التسيب والجريمة.

---

[17] **الرحلة**، ص 68.

[18] **الرحلة**، ص 72.

[19] **الرحلة**، ص77.

[20] **الرحلة**، ص63.

إلا أن موضوعيته لم تمنعه من توجيه انتقادات لسياسة الملك عبد العزيز بخصوص قضيتين اثنتين تنمان عن سوء التدبير المالي للدولة الجديدة، وهما:

**التضخم**: ينتقد الحجوي عدم إصدار المملكة العربية السعودية عملة ذهبية، على الرغم من توفر البلد على موارد اقتصادية وثروات هامة (البترول، مداخيل الحج، ومناجم الذهب) (ومع هذا فهو إلى الآن ليست له سكة مضروبة من الذهب، وإنما سكته فضية، ومع اتساع ماليته)[21]. والأدهى من ذلك أن الريال السعودي المتداول كان يمثل نصف قيمته الحقيقية (جمع من المملكة جميع الريال الذي يتعارفون به، وضرب بدله نصف الريال، وسماه: ريال. فهم الآن لا يتصارفون إلا بنصف الريال، وهم مجبرون على تسميته ريالا، ولذلك انتشر غلاء مفرط في المملكة كلها)[22]. (وهذه الأحول إذا تأملها ذو الفكر المنور، يعلم أن في الخفاء يتولد منها جراثيم وميكروبات الفتن والطيش والفساد والبطش)[23].

**الشبكة الطرقية**: تعتبر الطرق شرايين الحياة الحضرية، فحلول الحجاج بمداخل المملكة وتوجههم إلى الحرمين، يؤدي في الغالب إلى اختناقات مرورية، أما إذا كانت أحوال الطرق رديئة، فإنها تضاعف عذاب الحجاج. فالطرق الجيدة الواسعة تريح السالك فيها وتسهم في حل مشكلة الاختناق المروري وتوفير خدمات النقل والباصات السريعة، التي بدأ دخولها إلى الحجاز منذ عام 1930، لذلك تكتسي الطرق الرابطة بين المدن والمسالك والشوارع الداخلية في المدن أهمية كبرى للحج.

سجل الحجوي إعجابه بالطريق الرابطة بين جدة ومكة طولها نحو سبعين كيلومتر، واصفا إياها بالطريق الصناعية مزفتة تزفيتا حسنا متقنامبرزا قيمتها باعتبارها أهم إنجازات العهد

[21] **الرحلة**، ص 75.

[22] **الرحلة**، ص 75.

[23] **الرحلة**، ص 75.

الجديد[24]. في حين وصف بأسى شديد الأحوال المتردية للطرق الأخرى (فالطرق داخل مكة والمدينة وجدة على النسق الطبيعي القديم، لا ترصيف، ولا تحسين، والحالة بدوية كما كانت على عهد آدم الأول، والغبار يملأ الخياشيم بل البطون)[25].

إن الحجوي رجل الدولة الذكي والموظف السامي النزيه والموضوعي، وقف موقف المنتقد لأحوال الحرمين، حيث أبدى أسفه على مآلهما، خاصة بعد الطفرة الهامة التي أصبح يعرفها موسم الحج بارتفاع عدد الحجاج، إذ تجاوز عددهم حينذاك مائتين وخمسين ألف حاج[26]، بل وأكثر من ذلك، فقد اقترح توسعة ذكية جدا للحرم، فأكد أن العدد الغفير من الحجاج الوافدين كل سنة يستلزم توسيعا للحرم المكي بعدما أضحت بيوت الساكنين تلتصق بالمسجد الحرام، وأصبح المسعى يضيق بكثرة المساكن والمتاجر على جانبيه، لذلك أضحى لزاما التفكير في توسيع الحرم المكي. التوسعة التي اقترحها الحجوي تقتضي هدم المباني المحاذية للحرم، ونقل السكان والدكاكين بعيدا عنه، وإعادة تهيئة الحرم المكي وتأهيل أرضيته ومرافقه، وتبليط مسالكه وتلبيس المطاف بدل الحصباء بمواد تريح الحجاج وتيسر المشي للطواف أو الجلوس في الصلاة أو في حلقات العلم، وتبليط المسعى وضمه إلى الحرم، وهدم ما أقيم حوله من دكاكين ونقلها إلى سوق يقام خارج المسعى، (وتصير أرض المسعى على اتساعها مزيدة في أرض المسجد من جملته للجماعة والجمعة وإلقاء دروس العلم) ونفقات ذلك يجب أن تتقاسمها جميع الدول المسلمة، ويقترح الحجوي أن تساهم بخمس ريع أوقافها خلال سنة واحدة، وإذا لم تف المساهمات بالغرض يفتح حينئذ باب الاكتتاب[27]. هذه الأمنية التي سييسر الله تحقيقها بعيد الرحلة بسنوات قليلة، ضمن توسعة الحرم المكي في عهدالملك سعود بن عبدالعزيز رحمهما الله.

---

[24] **الرحلة**، ص 77.

[25] **الرحلة**، ص 82.

[26] **الرحلة**، ص 80.

[27] **الرحلة**، ص 94.

يتمنى الحجوي للأمة الإسلامية، فضلاً عن التوفيق في (توسيع مسجدها الحرام ومسعى طوافها)، أن يوفقها الله إلى (توسيع أفكارها بالعلوم والمعارف على اختلاف أنواعها، فلا اعتبار بأمة لا توسع أفكار شبابها بالعلم والتهذيب الأخلاقي والاجتماعي)[28].

**شاهد على العصر:**

لقد غاب عن الحجوي أنه لم يكن متاحا له الحج قبيل تلك السنة، سبب احتدام الحرب العالمية الثانية، هذه الحرب التي كان لها تأثير شديد الوقع على دول العالم، ومنها الحجاز الذي عانى نقصا في الموارد المالية، والمواد الأولية الضرورية لوضع أي مخطط تنموي، فموارد الحج تضاءلت كثيرا خلال الحرب، أما البترول فلم يتم استغلاله إلا في وقت متأخر، وكان الوقت مبكرا لإسهامه في التنمية الوطنية السعودية. وكان الهم الأول والأساس للحكم السعودي هو استتباب الأمن، وحماية الوحدة الوطنية.

وبُعَيْدَ زيارة الحجوي، أي ابتداء من السنة الموالية فقط (1947/1366)، ستعرف السعودية طفرة تنموية هامة، فالحرب قد انتهت، ومواسم الحج عادت لتستأنف انعقادها في ظل الأمن العالمي والوطني، ومداخيل البترول أخذت تغني مالية الدولة، فبدأت حركة رأس المال في النمو لوجود السيولة النقدية الخاصة بالصرف على مصالح الدولة وعلى إقامة المشاريع المختلفة العمرانية والتجارية والصناعية والإدارية وغيرها. فابْتُعِثَ الطلبةُ إلى الخارج،وأُنشِئَت الطرقُ والقناطرُ والمطارات والموانئ، وَوُسِّعَ الحرمان، وجهزا بما يليق لاستقبال الحجاج وضمان راحتهم وأمنهم، بل وقد تحقق جل ذلك، باقتصار السعودية على قدراتها ومواردها المالية، دون حاجة لطلب مساهمة أوقاف الدول الإسلامية كما اقترح الحجوي بنية صادقة.

[28] **الرحلة**، ص 95.

**خلاصة:**

لقد كان الحجوي في معظم كتاباته شاهدا على عصره، أَبْدى ملاحظاتٍ كثيرةً دقيقة وثمينة حول القضايا التي عاينها في البلدان التي زارها، فتتبع النظام التعليمي ومؤسساته ونتاجها، ورصد مظاهر التعمير والتمدن والمسالك والبنيات الأساسية، وما تنم عنه من أنظمة قائمة أو فوضى شاملة. وأوصى واقترح ما رآه كفيلا بحل المشاكل التي وقف عليها. كل همه أن ترقى أمته إلى مصاف الدول المتقدمة التي زارها وانبهر بدرجة تقدمها ورقيها وعلومها وأنظمتها. وكان دائم الطموح للارتقاء بالأمة العربية الإسلامية إلى درجتها، ولا شيء يمنعها من ذلك سوى العزيمة والإصرار، والخطة المحكمة في التعليم والاقتصاد والسياسة.

ولقد نجح الحجوي في الحفاظ على مكانته المتميزة كفقيه مصلح، جمع فيها بين وظائف الإفتاء الديني والإصلاح الاجتماعي. فأصبح جديرا بلقب مفتي الإصلاح، ولم يبق سجين رد الفعل الانفعالي المزاجي، والخوف من التحديث والعصرنة التي تخضع لها البلاد قسرا[29]، وكثير من آراءهالإصلاحية أصبحت مطالب لتنظيمات سياسية وحركات اجتماعية، وكررها مثقفون آخرون، وتحققت في الميدان بعدما تبين للنخب أن لابد منها.

إن مطلبي العناية بالعلم وإصلاح النظام كشرطي للتقدم العربي والإسلامي، ترجمهما بعناية فائقة خلال مذكراته التي وثق فيها رحلته المصرية الحجازية الثمينة.

[29] حميد الصولي، "التحديث ومنهجية بناء الفتوى في الفقه المغربي"، **مجلة أمل**، عدد 7، ص82.